الفصل السابع

فتح دمشق وتطهير الأردن

لعلك تذكر أن أبا بكر لما عزم فتح الشام واستمد العرب جميعاً لغزوه وجّه أربعة ألوية إلى أرضه ، جعل على أحدها أبا عبيدة بن الجراح ، وعلى الثاني عكرمة بن أبي جهل ، وعلى الثالث يزيد بن أبي سفيان ، وعلى الرابع عمرو بن العاص ، وأنه اختص كل لواء بمنطقة فى الشام يغزوها ، فإذا اجتمعت هذه الجيوش فالأمير عليها أبو عبيدة . وقد لقيت هذه الجيوش من مقاومة الروم وبأسهم ما اضطرها إلى الاجتماع فى صعيد واحد على ضفة اليرموك . ولم تدعها جند هرقل تتقدم ، بل وقفت إزاءها على ضفة النهر الأخرى . وضاق أبو بكر ذرعاً بجمود جنوده ، فكتب إلى خالد بن الوليد بالعراق ليسير إلى الشام أميراً على جيوشه كلها . وبلغ خالد الشام ، وأقام شهراً آخر على ضفة اليرموك دون أن يواجه الروم . وقبض أبو بكر وتولى عمر إمارة المؤمنين والموقف لا يزال على جموده . فكان من أوّلَ ما استفتح به عهده أن حمّل مَحميةَ بن زنيْم وشدّاد بن أوس كتاباً إلى أبي عبيدة بعزل خالد عن إمارة الجيش وبردها إليه كما كانت قبل أن يَفْصِل خالد من العراق إلى الشام[1] .

بَيْنَا محمية بن زنيم وشدّاد بن أوس فى طريقهما إلى الشام يحملان رسالة عمر بعزل خالد ، كان خالد يدبِّر للقاء الروم والقضاء عليهم . ولقد عرف أن الروم يتجهزون للقائه ، فعبأ جيوشه كراديس على نحو لم يألفه العرب من قبل ، وذلك لأنه ليس أكثر فى رأى العين من الكراديس ، ثم حمل بهم غداة ذلك اليوم فالتقى هو وجيش الروم فحطمه ، وقضى على كل أمل للروم فى استبقاء الشام[2] .

تجرى طائفة من الروايات بأن رسولى عمر بعزل خالد وصلا إلى الشام صبح اليوم الذى

---

(١) فى الروايات التى أوردها المؤرخون عن هذه الفترة وما يليها فى فتح الشام اضطراب فصلناه ، وأبدينا رأينا فيه فى الفصل الرابع عشر من كتابنا (الصديق أبو بكر) . وهو الفصل الذى تحدثنا فيه عن فتح الشام فى عهد الخليفة الأول . واختلاف الروايات يرد على ترتيب الوقائع ، حتى ليذكر بعضهم أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام . كما يرد على عزل خالد وهل كان عن إمارة الجيش مع بقائه أميراً على لوائه ولواء أبي عبيدة ، أو عن عمله فى الجيش كله . وسنأخذ هنا كما أخذنا فى كتاب أبي بكر برواية الطبرى ومن جرى مجراه . فهى فى رأينا أدنى إلى الوقائع . فإذا اقتضى السياق أن نشير إلى رواية البلاذرى أو غيره ممن خالفوا الطبرى أشرنا إليها .

(٢) فصلنا هذه المعركة تفصيلاوافياً فى كتاب (الصديق أبو بكر) فليرجع إليه من شاء .

وقعت فيه هذه المعركة الفاصلة ، وأنهما رفعا رسالة أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة فلم يُذع ما فيها حتى انتهت المعركة . فلما تم فيها النصر للمسلمين أنبأ خالداً بها وأذاع فى الجيش أمرها ، وتولى القيادة مكان خالد . وتذهب روايات أخرى إلى أن أبا عبيدة لم يُذع ما فى الرسالة إثر الموقعة ، بل أخفاه وسار تحت إمرة خالد إلى دمشق ، حتى إذا فتحت وتم الصلح مع أهلها أذاع أمر أمير المؤمنين . وتسوق بعض الروايات الحوادث غير هذا المساق ، وتذكر أن عمر أمر بعزل خالد عن كل عمله فى الجيش وبمحاكمته فى أمور نسبها إليه وطلب سؤاله عنها .

والراجح عندى أن أبا عبيدة لم يذع النبأ بعزل خالد أول ما بلغه ، سواء كان قد بلغه صبح يوم اليرموك أو بعد انتصار خالد فيها ، وأنه كتم هذا النبأ أياماً حار فى أثنائها ما يصنع به وكيف يذيعه . وفى هذه الأثناء عرف الناس أن أبا بكر قبض وأن عمر تولى مكانه ، فاختلفوا رأياً ، وبرم بعضهم بولاية عمر كما برم بها قومٌ من أهل المدينة ، ثم هدأت ثائرتهم ورضوا الواقع ، حين علموا أنه تم بوصية أبي بكر . وقدّر خالد أن عمر لن يرضاه أميراً على جيوش المسلمين بالشام ، وأنه لا بد أنْ سيعزله ، وتحدث بذلك إلى بعض المقربين منه ، ولعله تحدث به إلى أبي عبيدة . عند ذلك أنبأه أبو عبيدة برسالة عمر فلم يغضب ولم يثر ، ورضى طائعاً أن يتولى قيادة لوائه بإمرة ابن الجرّاح ، كما قبل ابن الجراح من قبل أن يكون تحت لوائه طوعاً لأمر أبي بكر حين بعث خالداً من العراق إلى الشام [1] . ولم يثر الناس بأمر عمر وعزله خالداً لأنهم كانوا يعرفون ما بين الرجلين منذ حادث مالك بن نويرة . وكذلك تم هذا التبديل فى إمارة الجيش إثر موقعة انتصر فيها خالد نصراً حاسماً ، فلم يترك فى نظام المسلمين وجندهم أى أثر تخشى مغبته .

---

(١) تذهب بعض الروايات إلى أن الكتاب بعزل خالد ورد إلى أبى عبيدة وهم على حصار دمشق ، وأنه كتمه عن خالد حتى فتحت دمشق بنحو من عشرين ليلة . ويذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » أن خالداً قال لأبى عبيدة حين أبلغه أمر عمر بعزله : « يرحمك الله ! ما منعك أن تعلمنى حين جاءك ! » وأجابه أبو عبيدة : « إنى كرهت أن أكسر عليك حربك . وما سلطان الدنيا أريد ، ولا للدنيا أعمل . وما نرى سيصير إلى زوال وانقطاع ، وإنما نحن أخوان . وما يضر الرجل أن يليه أخوه فى دينه ودنياه » . وهذا الجواب الذى أجاب به أبو عبيدة يذكرنا بكتاب خالد إليه حين أمر أبو بكر خالداً على جند الشام مكان أبى عبيدة . فقد كتب له خالد يقول : « أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام وبالمقام على جندها والتولى لأمرها . والله ماطلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه . وأنت رحمك الله على حالك التى كنت عليها ، لايعصى امرك ، ولا يخالف رأيك ، ولايقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين ، لاينكر فضلك ولايستغنى عن رأيك . تمم الله مابنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ! » ولا ريب أن قد كان هذا التضامن بين قوّاد المسلمين من أقوى العوامل فى انتصارهم .

هذا ما أرجحه ، وهو ما يستخلص من مختلف الروايات . وقد كتب به أبو عبيدة إلى عمر وأنبأه بما تم من نصر على الروم فى اليرموك ، وبعث إليه بخمس الفىء ، وذكر له أنه خلّف بشير بن سعد بن أُبَىٍّ الحميرى على اليرموك ليحمى ظهره ، وخرج إلى مرج الصُّفَّر يتعقب فلول المنهزمين الذين تجمعوا بِفحْل ، وأنه أتاه الخبر بأن هرقل أمد دمشق بقوات من حمص ، وكان هرقل يقيم بها ، فهو لا يدرى أيبدأ بدمشق أم بفحل من بلاد الأُرْدُنّ .

وتناول عمر كتاب أبى عبيدة ، فلم يلبث حين قرأه أن كتب إلى أبى عبيدة : « أما بعد فابدءوا بدمشق فانْهَدوا لها فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشْغَلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ، وضع شُرَحْبيل وعمراً بالأردنّ وفلسطين » .

تلقّى أبو عبيدة رسالة عمر ، فبعث إلى فحل بعشرة من قواده فى مقدمتهم أبو الأعور السُّلمى ، وسار هو وخالد بن الوليد فى قوة الجيش الكبرى يقصدون دمشق . ورأى الروم الذين لجئوا إلى فحل مَقْدَم المسلمين عليهم ، وكان أثر اليرموك وما أورثه إياهم من فزع لا يزال آخذاً بنفوسهم ، فأطلقوا ماء بحيرة طَبَرِيَّة ونهر الأردنّ فى الأرض حولهم ، فأوحلت وتعذَّر السير فيها . وغاظ المسلمين ما صنع عدوهم ، فوقفوا بإزائهم يحاصرونهم ولا يستطيعون التقدم فى الأرض الموحلة إليهم . وظل ذلك موقفهم حتى فرغ إخوانهم من فتح دمشق ، واستطاعوا أن يمدوهم بقوات زادتهم بأساً وإقداماً .

ولم يكن عجباً أن يفتح المسلمون دمشق مع مناعة حصونها وما أمدها هرقل به من جند عظيم . فقد كانوا إلى حين نصرهم الله باليرموك يسيرون فى أرض مياهها جارية ، لكن ما بها من خصْب وزرع لم يزد على مواقع الخصب بالمدينة وما حولها ، فلم يبلغ إغراؤه ما بلغت دلتا النهرين بالعراق . فلما ساروا من الواقوصة على اليرموك إلى دمشق رأوا جمالا يبهر بهاؤه اللب ، وتسحر بهجته القلب . رأوا أراضى البلقاء فى الجنوب تمتد مروجها إلى مسرح النظر ، ورأوا فى الشمال مراعى جَوْلان أبهى نضرة وأمرع خصباً ، ثم رأوا مزارع القمح والشعير متلاحقة بين هذه المراعى تقوم خلالها الأشجار مختلفاً أنواعها ، منها المثمر وغير المثمر ، ومنها ذو الأريج يفوح شذى زهره فيعطر ما حوله من الأرجاء . والنهيرات والغدران تجرى مياهها الصافية مصقولة الصفحة حيناً ، متدفقة فى اندفاع حيناً آخر ، تسقى هذه الزروع والأشجار

والحدائق الغناء ، وقد تحدّرت من تلال كست سفوحها الخضرة أو نمت فوقها الأشجار الباسقة ، فجلت رباها كأنها الأعلام بين أودية تنبسط تارة وتتموّج بين الارتفاع والانخفاض تارة أخرى . وهى فى انبساطها وفى تموجها يكسوها بساط من الزهر بألوانه البهيجة الفوّاحة . وزادت بنات الأصفر على تعبير العرب ، هذا الوسط الطبيعى الرائع رواء وبهجة . يتهادين فوق هذه الرُّبى وبين هذه الأودية ، فتمسك النظر قدودهن الممشوقة وخدودهن الملساء أشربت وجناتها حمرة تنم عن عافية وريّ ، وقد سوّاهن البارئ أحسن تسوية وقوّمهن أحسن تقويم ، فكن ملائك هذه الجنان التى يسبر العربي خلالها فى الطريق إلى العاصمة الحصينة . وههنا وهناك تقوم المدائن التى أنشأها الرومان وأقاموا فيها المسارح والملاعب والكنائس . وكلها عمائر تلفت عظمتها النظر وتثير الإعجاب . وهناك على حدود الأفق إلى الشمال تبدو أعالى الجبال توّجت هاماتها الثلوج ، فبدت فى جلال ، ما أشبهه بجلال المشيب ، ناصع البياض . أى شىء هذا السحر الباهر وهذا الجمال الساحر ! وهل من باعث غير الإيمان أقوى منهما يدفع إلى المغامرة فى سبيلهما ! . ولهؤلاء الجنود المسلمين من قوة الإيمان بالله ورسوله أوفى حظ وأوفر نصيب . وقد زاد هذا السحر قوةَ الإيمان فى نفوسهم ، فدفعهم يسرعون إلى عاصمة الشام وهم أشد ما يكونون حرصاً على فض حصونها والدخول إلى قلبها .

بل لقد زادهم اسم دمشق حرصاً على الإسراع إليها والاستيلاء عليها . فكم سمعوا بعجائبها من إخوانهم وآبائهم الذين كانوا يذهبون أثناء رحلة الصيف بالشام إليها ! وكم حدثهم عن تاريخها بنو وطنهم من المسيحيين الذين يحجون إلى بيت المقدس ، ثم يذهبون إلى مقر الملك بالشام يجتلون نعمة الحضارة فيه ، ويبتاعون من متاجره الغنية تحفاً لا مثيل لها بالمدينة المقدسة بفلسطين . قص عليهم هؤلاء المسيحيون تاريخها ، فأذكوا فى نفوسهم تطلّعا أى تطلّع لمشاهدتها والتمتع بجنّاتها الفيحاء ومياهها الجارية وظلالها الوارفة وفاكهتها الشهية ، وما فيها من جمال يحدّث عن حاضر فاتن وماض أكثر فتنة . فدمشق من أقدم مدائن العالم إن لم تكن أقدمها جميعاً [1] . وقد توالت عليها عصور عظيمة كانت فيها مقر عبادة وثنية ضخمة ، فلما جاءت المسيحية جعلت من معبدها الوثنى كنيسة لأتباع

(١) يقول صاحب لسان العرب : إن دمشق سميت ببانيها دمشاق بن كنعان أو دامشقيوش . ويذكر المؤرخون اعتماداً على ماجاء فى التوراة أنها كانت مدينة عظيمة فى عهد إبراهيم الخليل عليه السلام . وأنها خضعت لحكم مصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، وأن اسمها وجد منقوشاً فى تل العمارنة على أنه دمشقة .

السيد المسيح لا يبذّها فى جمالها وجلالها إلا كنيسة أنطاكية كبرى معابد المسيحية بالشام . هذا إلى ما أقامه الروم فيها من عمائر فاقت كل ما وقعت عليه أعين هؤلاء العرب فى طريقهم إليها جلالا وعظمة . كيف إذاً لا تنهب جيوش المسلمين الطريق إليها نهباً ! وكيف يخامرها ريب فى أنها لا بد مستولية عليها بعد أن قهرت الروم باليرموك ، وقضت من جنـــدهم على عشرات الألوف خرّوا صرعى فى الميدان أو تردّوا هلكى فى هاوية الواقوصة !

ولم يجد هذا الجيش الظافر فى طريقه مقاومة تذكر . فلم يكن الروم يعتمدون فى قتالهم على ما كان يعتمد عليه الفرس من التحصن بالأنهار ومجارى المياه المتشابكة بين دجلة والفرات ، لأنه ليس بالشام مثل هذه الأنهار . ولم يكن الروم يندفعون إلى المعارك مستميتين اندفاع الفرس ، لأن العراق كان للفرس منه نصيب عظيم ، وكانت المدائن عاصمة الأكاسرة على شاطئ دجلة أكبر أنهاره . أما الشام فكان ولاية رومية ، وكانت القسطنطينية عاصمة القياصرة بعيدة عن بيت المقدس وعن دمشق ؛ فلم يكن فى نفوس المدافعين عنها من الحماسة والاستماتة ما كان فى نفوس المدافعين عن المدائن . ولم تبعث العصبية الدينية فى نفوسهم حب الاستشهاد فى سبيل بيت المقدس . فقد غلب الفرس الروم واستولوا على كنيسة القيامة وعلى كنيسة المهد من قبل ، فلم يجد أهل البلاد فى هذا التغيير الذى طرأ على حكامهم ما يدعوهم إلى افتداء هذه المعابد بأرواحهم . فإذا كان هرقل قد ردّ الفرس واسترد فلسطين ، فلم يكن حكم عمّاله خيراً من حكم الفرس ولا أكثر رفقاً ومعدلة . لذلك لم يعتمد هرقل على شىء فى هذه البلاد اعتماده على المدن المحصنة ، كدمشق وحمص وأنطاكية ، اعتزازاً بحصونها ، واطمئناناً إلى قوة مقاومتها .

بلغ المسلمون غوطة دمشق فازدادوا حماسة واندفاعاً ؛ فقد رأت أعينهم هذا السهل الفسيح تقوم عليه أم المدائن وأقدمها ، وكأنه قطعة من الجنة هبط بها الملائكة من سماء الخلد إلى هذه الأرض : أنهار جارية ، وعيون دافقة ، وأشجار متشابكة الأغصان ، وأعناب وتين وزيتون وجنة نعم . وبين هذه الظلال الوارفة تسرى خلالها نسمات تضوع عطراً ، قامت منازل المُتْرَفين الذين آتاهم الله من فضله ورزقهم من طيبات هذه الدنيا ، تحدّث عما كان فيها ومن كان فيها من سادة يتمتّعون وجوارٍ كأنهن الحور العين . أين من هذا الجمال الرائع والنعمة السابغة ، ما رأت عيون الذين صحبوا خالد بن الوليد إلى العراق ، وكانوا يرونه يومئذ سحراً أى سحر ، وفتنة أى فتنة ! فإذا صحت كلمة خالد بالعراق : « ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب ! وبالله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء

إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقل عما أنتم عليه » إذا صحت هذه الكلمة بالعراق مرة فإنها تصح أمام دمشق وغوطتها ألف مرة . فما يرون هنا ليس هو الطعام بلغ من الكثرة مبلغ التراب ، وإنما يرون مع الطعام ما لم يكن يدور لهم فى خيال ، وما حسبه أكثرهم مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر .

ألفى المسلمون منازل الغوطة وقصورها خالية لا يسمع فيها إلا غناء الأطيار على أفنان بساتينها . ذلك أن أهل المنازل والقصور هجروها ليحتموا من الغزاة بأسوار المدينة المنيعة . وكانت أسوار دمشق مضرباً للمثل فى التحصن والمَنَعَة . بنيت من حجارة ضخمة متينة ، وعلت إلى ارتفاع يزيد على ستة أمتار فى سمك يزيد على ثلاثة . وكانت حصونها رفيعة الذُّرَى كثيرة الشرفات ، يحتمى بها الرماة بالسهام والمجانيق من المدافعين فيها . وقد زادها هرقل تحصيناً بعد غزو الفرس إياها ، أملاً فى أن تردّ كل طامع فى الإمبراطورية . وكان بالأسوار أبواب منيعة يحكم إغلاقها فلا تدع سبيلاً لداخل إلى المدينة أو خارج منها . وأحيطت الأسوار بخندق يزيد عرضه على ثلاثة أمتار طمته مياه نهر بَرَدَى . بذلك كانت دمشق كلها قلعة واحدة ذات أبراج فى كل نواحيها ، فلم يكن لمهاجمتها سبيل إلا بعد حصار طويل يفتّ فى أعضاد أهلها ، ويضعف عزائمهم ويحملهم على التسلم .

قدَّر أبو عبيدة ما يقتضيه اقتحام المدينة الحصينة من هذا الحصار الطويل ، فأمر جنوده ففتحوا كنائس الغوطة ومنازلها واتخذوها مساكن يأوون إليها . وقدَّر أن هرقل قد يبعث بجنود من حمص أو فلسطين يحصرون قواته حول دمشق بين حصون المدينة وجيوش الروم ، فبعث ذا الكَلاَع الحميرىّ فعسكر بين دمشق وحمص ، وبعث علقمة بن حكيم ومسروق العكى فعسكرا بين دمشق وفلسطين . فلما اطمأن إلى ما صنع من ذلك أمر قواده وجنوده بالتقدم لحصار العاصمة ، تمهيداً لاقتحامها ، وعيّن لكل منهم باباً من أبوابها ينزل عليه . فنزل هو على باب الجابية ، ونزل عمرو بن العاص على باب توماء ، ونزل شُرَحْبيل ابن حَسَنة على باب الفراديس ، ونزل يزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير أو باب كيسان . أما خالد بن الوليد فنزل على الباب الشرقى . وكان على مقربة من هذا الباب دير يسمى دير صَليبا اتخذه خالد مقرًّا له ، ولذلك سمى من بعدُ دير خالد .

ونصب المسلمون المجانيق والدبابات حول المدينة وبدءوا يهاجمون حصونها . لكن هذه الحصون كانت أمنع من أن تفتضها عُدَّة العرب وطرازها ساذج والجنود الذين

يستعملونها غير مدربين على فنون الحصار . لذلك قاومت كل هجوم وردّ حماتها جنود الدبابات ورماة المجانيق بسهامهم ونبلهم . وكان نسطاس حاكم المدينة وباهان قائد جنودها على ثقة من أن هرقل لن يدع عاصمة ملكه بالشام تسقط فى أيدى أعدائه وهو مقيم على مقربة منها بحمص فى جيش عظيم ، وأن هؤلاء العرب لن يلبثوا لذلك أن يفضّوا حصارها وينفضُّوا عنها كما فعل غيرهم من قبل . ولهذه الثقة طالت مقاومتهم ولم يجد المسلمون إلى المدينة منفذاً . والحق أن هرقل لم يُكذب ظنهم ؛ فقد بعث من حمص بقوات سارت مدداً لدمشق . لكن هذه القوات لقيت ذا الكلاع وفرسان اليمن فى طريقها ، فكان بين الفريقين قتال عنيف ارتد الروم على أثره منهزمين إلى حمص . وعرف نسطاس وباهان ما كان من ذلك فاضطربا حيناً ، لكنهما سرعان ما استردا ثقتهما بقدرة دمشق على المقاومة . فعما قريب يشتد البرد فلا يطيق العرب أبناء الصحراء الحارة احتماله . فيعودون أدراجهم ، وتعود إلى مدينتهم حرمتها وكرامتها .

على أن طمأنينتهم هذه لم تمنعهم من أن يبعثوا إلى هرقل من يستعجل مدده مخافة أن يطول بالناس الحصار فتهن عزائمهم . وأرسل إليهم قيصر يقول إنه ممدهم ، ويحرِّضهم على الثبات والمقاومة . وقوّت رسالة هرقل عزيمتهم ، وجعلتهم يثبتون لهجمات المسلمين ويصدونها ، وإن لم يغامروا بالخروج من أسوار مدينتهم لمواجهة الذين هزموا جند الروم فى اليرموك وقضوا عليهم . وطالت مقاومتهم وطال حصار المسلمين إياهم زمناً اختلف فيه : قيل كان سبعين يوماً ، وقيل أربعة أشهر ، وقيل ستة أشهر . وضيق المسلمون عليهم الحصار طول هذا الزمان ، وطال انتظارهم مدد قيصر على غير جدوى . وانقضى الشتاء وأقبل الربيع والعرب على حصارهم لا يرِيمون عنه . عند ذلك وهت قوتهم ووهنت عزائمهم ، وانقطع رجاؤهم فى مدد قيصر وفى جلاء المحاصرين ، فبدءوا يفكرون فى التفاهم معهم وفى مصالحتهم .

وانتهى المسلمون بالدخول إلى المدينة وعقد الصلح مع أهلها . كيف دخلوا ؟ أكان ذلك عنوة أم فتح الدمشقيون لهم الأبواب ؟ ؟ ومَن من المسلمين عقد الصلح ، وعلى أى شىء عقد ؟ هنا تختلف الروايات بل تضطرب . وأكثر هذه الروايات شهرة أن خالد بن الوليد كان مقيماً على الباب الشرقى لا ينام ولا ينيم ، وكانت له عيون زاكية فلا يخفى عليه مما يجرى فى دمشق شىء . ونمى إليه يوماً أن بطريق المدينة وُلد له ولد فرح به ، فأولم للناس ، فأكل

الجند وشربوا وغفلوا عن مواقفهم . وكان خالد قد اتخذ حبالاً كهيئة السلالم وأوهاقاً [١] فلما أدرك الليل أعجازه نهد هو وجنده الذين قدم بهم من العراق ، وقال لهم : إذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا إلينا ، ثم تقدَّمهم ومعهم القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدىّ وأمثالهم من الشجعان المغاوير ، فعبروا الخندق عائمين على القِرَب ، وأثبتوا أوهاق حبالهم فى شُرَف السور وتسلّقوا سلاليمها ، حتى إذا ارتقوا على الجدار جذبوا بعض الحبال وأثبتوها فى الشُّرف التى تلى داخل المدينة وألقوها ، فانحدر خالد وطائفة ممن معه ونزلوا أمام الباب فعالجوا فتحه بسيوفهم . وكثر إخوانهم الذين أقاموا بأعلى الجدار ، فلما سمع رجال خالد تكبيرهم أسرعوا يعبرون الماء ويتسلقون الحبال إلى زملائهم فوق السور .

وكان الباب الشرقى أمنع أبواب دمشق وأكثرها ماء وأحصنها مدخلاً . لذلك لم يكن عليه من الحراس إلا عدد قليل ، فاجأهم خالد ومن معه وهم فى غفلتهم فقتلوهم ، وفتحوا أغلاق الباب بالسيوف فدخل منه من لم يرق إلى أعلى السور واندفعوا داخل المدينة يكبرون . وفزع الناس فى سائر أرجائها ، وانتشر بينهم خبر المسلمين واقتحامهم الباب الشرقى وقتلهم من قابلهم . عند ذلك أسرعوا إلى سائر الأبواب ففتحوها وصالحوا أبا عبيدة فأمنهم ودخل من باب الجابية ولا علم له بما فعل خالد . فلما عرف ما يجرى من سفك الدماء بعث إلى خالد أن يكفَّ عن القتال فقد صالح الناس وأمنهم . واعترض خالد بأنه فتح باب المدينة عنوة . لكن أبا عبيدة كان الأمير على الجند ؛ فلم يكن بدٌّ لخالد من أن يسمع لأمره وأن يجرى الصلح على الجانب الذى فتحه .

هذه أكثر الروايات شهرة فى فتح دمشق ، وهى تنهض ، على غرابة وقائعها ، وتجد من يؤيدها من مؤرخى العرب ومن المستشرقين ؛ لأن بطلها خالد بن الوليد . ولو أن بطلها كان غير هذا العبقرى صاحب المعجزات فى الحرب لرماها المؤرخون جميعاً بالتهافت ، بل لما أقدم أحد على روايتها . فمَنْ غير خالد لا ينام ولا يدع غيره ينام ! ومَنْ غيره يستوى إليه علم ما تحتويه دمشق من أسرار داخل أسوارها ، حتى ليعلم أن البطريق وُلد له ولد وأنه أولم للناس ، وأن الحرس بلغ منهم الطعام والشراب فغفلوا عن مواقعهم ؟ ومَنْ غيره ، بعد حصار دام سبعين يوماً أو أربعة أشهر ، أو ستة أشهر يُقدم على أن يعبر الخندق مع أصحابه مستعينين بالقرب ، وأن يتسلق الأسوار على الحبال وأن يهبط بنفسه داخل هذه الأسوار معرضاً نفسه للخطر حين انبلاج الصبح ! لكن لخالد فى الحرب معجزات

(١) الوهق : الحبل يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ فيه الدابة والإنسان ونواتئ الجدران .

رأيناها فى حروب الردَّة وفى فتح العراق وفى غزوة اليرموك ، فلا عجب أن تكون هذه إحدى المعجزات التى كفلت له فى كل غزواته النصر والسؤدد ، وأن تجد لذلك من يؤيدها من مؤرخى العرب ومن المستشرقين .

على أن هذا التأييد لم يعصمها من تفنيد الناقدين لها وطعن الطاعنين عليها ، وأخذهم بغيرها من روايات أدنى إلى المألوف فى مثل موقف دمشق . من هذه الروايات أن أبا عبيدة هاجم باب الجابية بقواته ففتحه عنوة ، على حين صالح خالد أهل المدينة مما يلى الباب الشرقى فلما التقى القائدان فى قلب دمشق أجاز أبا عبيدة صلح خالد وأجراه على المدينة كلها . ولا فرق بين هذه الرواية والرواية الأولى إلا فيما يتصل بخوارق خالد ، كعلمه بوليمة البطريق وأثرها فى الحراس ، وتسلُّقه الأسوار والأوهاق . ولو لم يُذْكر من هذه الخوارق شىء وقيل إن خالداً فتح الباب الشرقى عنوة ، وأن أبا عبيدة صالح من يلى باب الجابية ثم أجرى الأمر فى المدينة كلها مجرى الصلح ، لتساوت الروايتان ، ولكان معناهما أن قواد المسلمين عرفوا أن الحصار أوهن عزائم المحصورين ، فاتفقوا على مهاجمة أبواب المدينة جميعاً ، فلما رأى الدمشقيون هجومهم اختلفوا فيما يصنعون ، ففتَحَت طائفة أبوابها ، وتأخرت طائفة ، فاقتحم القائد الذى يليها بابها عنوة ، وكذلك دخل من دخل من المسلمين صلحاً واقتحم من اقتحم دون أن يلقى مقاومة ، ثم أجرى الأمر فى المدينة كلها على الصلح .

هذا التصوير يوفق بين تينك الروايتين ولا يناقض غيرهما من الروايات المختلفة عن فتح دمشق . ومن هذه الروايات أن أسقف المدينة وقف على أسوارها غير مرة يتحدث إلى خالد بن الوليد ، وأنه قال له يوماً : « يا أبا سليمان إن أمركم مقبل ، ولى عليك عِدّةٌ ، فصالحنى على هذه المدينة ! » . ورضى خالد فدعا بدواة وقرطاس وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها . أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم ، لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم ، لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية » . ويضيف البلاذرى بعد أن يثبت هذا الكتاب أن الأسقف أفضى إلى خالد ذات ليلة بأن المدينة فى عيد وان أهلها فى شغل . وأشار عليه أن يلتمس سُلَّماً ، فجىء بسلّمين فارتقى عليهما جماعة من المسلمين إلى أعلى السور ، ونزلوا إلى الباب وليس عليه إلا رجل أو رجلان ، فتعاونوا عليه وفتحوه عند طلوع الشمس . وكان أبو عبيدة من جانبه قد دخل باب الجابية عنوة ، فنشر له الأسقف كتاب خالد ، فقال بعض المسلمين : « والله ما

خالد بأمير ، فكيف يجوز صلحه ؟ » . فقال أبو عبيدة : « إنه يجير على المسلمين أدناهم » ، وأجاز الصلح .

وتذهب رواية أخرى إلى أنه لما طال الحصار واشتد الأمر على أهل دمشق دسّوا إلى المسلمين من تحدث معهم فى الصلح ، فأصر المسلمون على المشاطرة ؛ أى أن يكون لهم النصف من كل ما فى دمشق ، فتردد أهل المدينة فى قبول ما عُرض عليهم . فلما رأوا حاميتهم عاجزة عن الدفاع عنهم ، وأن لامفر لهم من التسليم ، بعثوا إلى أبى عبيدة وحصلوا منه على أمان المدينة ، ثم فتحوا أبوابها له ، فدخلها هو وقواده وجيشه من غير قتال .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن حامية دمشق يئست من الدفاع عنها فغادرتها ، فقرر سكانها التسليم ففتحوا مدينتهم للجيش العربى ، ثم صالحهم أبو عبيدة بعد أن دخل المدينة واستقر بها .

هذه هى الروايات المختلفة فى فتح دمشق . والمؤرخون متفقون مع اختلافها على أن المدينة فتحت صلحاً ولم تفتح حرباً . وهذا يرجح ما قدّمنا من أن طول الحصار واليأس من مدد هرقل أديا بالدمشقيين إلى طلب الصلح فاختلف على شروطه ، فأراد المسلمون أن يقتحموا أسوار المدينة ففتح أهلها أبوابها لهم . ولعل بعض هذه الأبواب قد تأخر ففتح عنوة ، ثم كانت المفاوضات وكان الصلح .

ونود قبل أن نذكر شروط هذا الصلح أن نجتاز مع أبى عبيدة وخالد بن الوليد وزملائهما أسوار دمشق ، وأن نسير هنيهة معهم خلال هذه المدينة العـــامرة ذات التاريخ الحافل والجمال الرائع وأن نلقى فى أثناء مسيرتنا هذه النظرة على ما تحويه . فلهذه النظرة بشروط الصلح أوثق الصلة . تحدثت عن جمال الطريق المؤدى من اليرموك إلى دمشق ، وعن جمال الغوطة . أما المدينة فتبذ هذا الجمال جلالا وبهاء ؛ فهى ملتقى تجارة الشرق والغرب من أقدم العصور ، وهى لذلك من أكثر المدن سكاناً وأضخمها ثروة . يشقها طريق مستقيم يصل غربها بشرقها ، ويجرى من باب الجابية إلى الباب الشرقى ، وتقوم على جانبيه متاجر لم ير العرب لها نظيراً فى بلادهم ، ولم يروا لها نظيراً فى العراق . ويجرى خلال المدينة نهر بَرَدَى بمياهه المتدفقة الصافية ، وقد قامت حوله القصور الفخمة ذات الحدائق الغناء ترتفع خلالها نوافير المياه صاعدة فى السماء . وما أكثر كنائس دمشق وأجملها ! فهى من العمائر الرومانية المتفاوتة البهاء ؛ يبلغ عددها خمس عشرة ، وأعظمها كنيسة القديس يوحنا المعمدان . بنى الرومان هذه الكنيسة معبداً وثنيًّا قبل أن يدينوا

بالمسيحية ، فلما تنصَّروا جعلوها مكان عبادتهم وصلواتهم للسيد المسيح ولأمه العذراء البتول . ويقوم من حول هذه الكنائس والقصور والمتاجر ما اعتاد الرومان تشييده من مسارح وحمامات وملاعب . ما أشد ما يقف هذا كله نظر هؤلاء العرب الذين يمرون به ! إنهم لم يشهدوا مثله فخامة وجلالا وعظمة . أين منه ما رأت عيونهم بصنعاء وبالحيرة ! وأين منه الخورنق والسدير قصرا النعمان بن المنذر بن ماء السماء ! ترى أية شروط للصلح يمليها عليهم هذا الثراء العظيم ، وهذا الجمال الباهر ؟ وهل تراهم يعفّون عنه فلا يشاركون أصحابهم فيه ؟ أو تراهم يحرصون على أن يكون لهم منه نصيب أقلّه نصفه ؟ !

تختلف الروايات فى ذلك كاختلافها فى فتح دمشق . ففى رواية للبلاذرى أن الصلح جرى على ما فى كتاب خالد بن الوليد لأسقف دمشق ، وهو الكتاب الذى أثبتنا نصه من قبل ، والذى يجعل للمسلمين الجزية دون غيرها ، يأخذونها لقاء تأمينهم أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم ودورهم وكنائسهم وسور مدينتهم . ويثبت البلاذرى تأييداً لهذا الرأى قول أبى عبد الله الواقدى : « قرأت كتاب خالد بن الوليد فلم أجد فيه أنصاف المنازل والكنائس » . ويضيف الواقدى أن المسلمين إنما نزلوا منازل دمشق واستقروا بها لأن أصحاب هذه المنازل تركوا المدينة لما فتحت ، ولحقوا بهرقل إذ كان يقيم بأنطاكية ، فأصبحت منازلهم لا مالك لها فنزل المسلمون بها .

أمَّا الطبرى فقد روى أن صلح دمشق كان على المقاسمة على الدينار والعقار ، وعلى جزية دينار عن كل رأس . ويفسر ابن كثير المقاسمة فى المال والعقار بأن جانباً من المدينة فتح عنوة فكان كله حقًّا للمسلمين ، على حين فتح جانب منها صلحاً فوجبت عليه الجزية دون سواها ، ولذلك أخذ المسلمون نصف ما فى المدينة من كنائس ومنازل وأموال بحكم الفتح عنوة ، وفرضوا عليها الجزية بحكم الفتح صلحاً .

ويقرر الذين يذكرون المقاسمة فى الكنائس والمنازل والأموال أن المسلمين أخذوا سبع كنائس من الكنائس الأربع عشرة القائمة بدمشق ، وأنهم قسموا الكنيسة الكبرى ، كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، فتركوا نصفها للنصارى يقيمون فيه صلواتهم ويتلون فيه الإنجيل ، وجعلوا النصف الآخر مسجداً للمسلمين يتلى فيه القرآن ويذكرون فيه اسم الله وينادَى من فوقه للصلاة .

وظلت هذه القسمة نحواً من ثلاثين سنة طلب فى أثنائها معاوية بن أبي سفيان ، ثم طلب عبد الملك بن مروان أن يزيدا فى المسجد بأن يضاف جانب من الكنيسة إليه . ومع

ما عرضا فى ذلك من مال طائل ، لقد أبي النصارى عليهما ورفضوا إجابة طلبهما تمسكاً منهم بحكم الصلح الذى تم عند فتح دمشق . ولما استخلف الوليد بن عبد الملك طلب إلى النصارى ما طلب سلفاه وعرض عليهم مالا طائلاً ، فأبوا عليه كما أبوا عليهما ، فهددهم ليهدمنها إن لم يقبلوا عرضه . وخوفوه غضب الله فلم يخف وهدمها وأدخلها فى المسجد . فلما استخلف عمر بن عبد العزيز شكا النصارى إليه ما صنع الوليد بكنيستهم ، فكتب إلى عامله يأمره بأن يرد عليهم ما كان لهم . وكره فقهاء دمشق وأهلوها من المسلمين أمر عمر وقالوا : « نهدم مسجدنا بعد أن أذّنا فيه وصلينا ويُرَدّ بيعة ! » وعرضوا على النصارى أن يعطوهم كنائس الغوطة التى أخذت عنوة وصارت فى أيدى المسلمين ، على أن يمسكوا عن المطالبة بما كان لهم من كنيسة يوحنا ، فرضى النصارى ، وأقر عمر بن عبد العزيز هذا الاتفاق .

فلولا أن صلح دمشق كان على المقاسمة لما جعل جانب من كنيسة يوحنا مسجداً ، ولما طلب معاوية وعبد الملك أن يُدخلا ما بقى بأيدى النصارى فى المسجد ، ولما هدم الوليد الكنيسة ، ولما شكا النصارى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز . كذلك يقول الذين يذكرون أن صلح دمشق كان على المقاسمة ، وأنه لم يقتصر على الجزية . وقد يجيبهم مخالفوهم بأن كنيسة يوحنا لم تقسم فى صلح خالد ولم يقسم غيرها من الكنائس والمنازل والأموال فهذا الصلح لم يفرض إلا الجزية . وإنما طلب معاوية بن أبي سفيان وطلب عبد الملك ابن مروان أن تكون الكنيسة مسجداً بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الدولة الإسلامية ، وبعد أن زاد عدد المسلمين فيها على عدد النصارى ، وبعد أن أصبح الأمر فيها لأمير المؤمنين . فإن يكن النصارى قد أبوا عليهما ما طلبا فتركا الكنيسة لم يمساها ، فذلك الدليل على التسامح الإسلامى وعلى احترام عهد الصلح مع ما كان من تبدل الأحوال ؛ إذ صارت دمشق عربية إسلامية بعد أن كانت مسيحية رومية ، ومجاراة هذا التبدل هى التى طوعت للوليد بن عبد الملك أن يفعل مافعل . ولهذا التطور رضى النصارى فى عهد عمر بن عبد العزيز أن يدعوا الكنيسة مسجداً للمسلمين ، وأن يأخذوا كنائس الغوطة خارج أسوار العاصمة الإسلامية .

ونحن نميل إلى ترجيح هذا الرأى الأخير . وهو على كل حال أكثر الآراء تواتراً ، ورواته هم أكثر الرواة عدداً .

اختلف الرواة فى أمر المقاسمة ، لكنهم جميعاً متفقون على أن الصلح فرض على أهل

دمشق جزية يدفعونها لقاء منعهم وحرية عقيدتهم وحماية مدينتهم وأموالهم . كانت هذه الجزية ديناراً وكَيلا معيناً من الحنطة على كل رأس وزيتاً وخلاً لقوت المسلمين . هذا خلا الضرائب التى كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم ، فقد ظلوا يدفعونها لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب إليه بتعديله ، وذلك بأن فرّق بين الطبقات فى الجزية ؛ إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ، وأربعين درهماً على من دونهم ، وقيل بل جعلها طبقات على قدر غنى الغنىّ وإقلال المقل وتوسُّط المتوسط ، ثم ألزمهم أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت ومن الوَدَك والعسل .

هذا نصاب الجزية فى صلح دمشق ، وذلك ما قيل فى أمر المقاسمة . وعلى أساس من هذا الصلح العادل بعد حصار طويل استقر المسلمون بعاصمة الشام وجلت عنها حامية هرقل ، وجلا عنها المتعصبون للروم من أهله ، وكانت سياسة المسلمين فى إدارتها هى السياسة التى رسمها أبو بكر فى عهده حين بعث خالد بن الوليد يفتح العراق : تركوا لأهل دمشق ما كان لهم من إدارة مدينتهم ، وأقاموا الأمر فيها على الأساس الذى صوره خالد فى كلمته لبعض أهل العراق : « إن كنتم عرباً فماذا تنقمون من العرب ! وإن كنتم عجماً فماذا تنقمون من الإنصاف والعدل ! » . فلما اطمأن المقام للمسلمين بالمدينة الجميلة بدءوا يفكرون فى الواجب عليهم لدينهم ووطنهم .

كان طبيعيًّا أن يتجه أبو عبيدة بادئ ذى بدء إلى التفكير فيمن خلّف وراءه من جنود المسلمين عند فِحْلٍ بالأردن ، وفيما يجب عليه بعد أن يتغلب على قوات الروم هناك . على أن كتاب عمر إليه بتعديل نصاب الجزية تناول أموراً لم يكن له بدٌّ من المسارعة إلى تنفيذها ، وفى مقدمة هذه الأمور ردّ القوات التى فصل بها خالد بن الوليد إلى العراق على أن يظل خالد بالشام ، فقد كان مما أوصى به أبو بكر عمر حين استخلفه أن قال له : « إذا فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحَـدُّه ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » . وها قد فتح الله دمشق على أبى عبيدة . ثم إن المسلمين بالعراق يلاقون فى قتال الفرس الشدائد ، فهم أشد ما يكونون حاجة إلى المدد . والقوة التى فصلت من العراق إلى الشام مدد لا يستهان به ؛ ففيها من الأبطال الصناديد من عركوا الحرب وعركتهم ، ومن كان لهم فى كل المواقع التى حضروها بلاء مشهود . لذلك أمَّر أبو عبيدة هاشم بن عُتْبة على جند العراق وجعل معه القعقاع بن

عمرو وأضرابه من أولى النجدة والبأس ، وعوّضهم عمن استشهدوا فى وقائع الشام جنداً يعدل الجند الذى جاء من العراق عدداً وقوة ، وخرجوا جميعاً يقصدون المثنّى وعسكره بذى قار على تخوم البادية ، متخذين طريق القوافل المعبَّد ، بعيدين عن الطـريق التى غامر بهم خالد فيها حين جاء إلى الشام لينسى الروم وساوس الشيطان . ولم يدر بخاطر هاشم بن عتبة وقوّاده وجنوده فى أثناء مسيرتهم خلال الصحراء أنهم يتقدمون إلى العراق ليقفوا مع المسلمين بإمرة سعد بن أبي وقاص ، فيواجهوا الفرس فى الموقعة الحاسمة التى فتحت الطريق إلى المدائن وإلى قلب فارس : موقعة القادسية .

فلندعهم الآن فى مسيرتهم ، ولنصحب أبا عبيدة فى الشام . وسنعود عما قليل إليهم نشهد معهم هذه الموقعة الفاصلة التى قضت على جيش كسرى وأدالت دولته وفتحت صحفاً فى التاريخ جديدة مجيدة [١] .

اطمأن أبو عبيدة إلى مقام المسلمين بدمشق ، فاتجه إلى التفكير فيمن خلّفهم وراءه من جنود المسلمين عند فحْل بالأردنّ . ولقد دفعت حماسة الظفر جماعة من أصحابه ، فأشاروا عليه أن يسير من دمشق إلى حمص ليفتحها . فقد كان هرقل مقيماً بها فى أثناء حصار دمشق ، فلما رأى قواته لا تستطيع الوصول إلى عاصمة الشام للذود عنها جلا عن حمص إلى أنطاكية ، فلو أن أبا عبيدة سار إلى حمص ففتحها لجلا هرقل عن أنطاكية إلى الأناضول أو إلى القسطنطينية ، فإذا فعل انهدّت عزائم جنوده فى أنحاء الشام جميعاً فألقوا بأيديهم لا يقاومون ولا يقاتلون . لكن أبا عبيدة خالف هذه المشورة ، وما كان له أن يقبلها وقد أمره عمر ألا يتقدم ما بقى وراءه من الروم جند يهددون رجعته ، أو يستطيعون أن يقطعوا ساقته . وقد استقر من جند الروم عند فحل إلى الجنوب من بحيرة طبَريّة من نجوا من اليرموك ، ثم أيدهم هرقل بقوات جديدة . وكانت هذه القوات لا تزال فى فزعها من هزيمة اليرموك حين سار أبو الأعور السلمى فى جند المسلمين ليقاتلها ، لذلك أطلقت مياه البحيرة والنهر فى الأرض التى حولها فتوحلت ، فعاقت جيش المسلمين عن التقدم . لكن الروم لم يستطيعوا هم كذلك أن يتقدموا ولم يُجْدِهِمْ لذلك مدد هرقل نفعاً ، وبقيت الأرض متوحلة طول الشتاء وطيلة حصار دمشق ، وبقى الروم محصورين وراء فحل فى وادى بيسان . فلما

---

(١) يرجح بعض المؤرخين أن هاشم بن عتبة فصل إلى العراق بعد غزوة فحل . ويعتمد بعضهم فى تأييد هذه الرواية على تاريخ الوقائع فى العراق وفى الشام . وتحديد هذه التواريخ تحديداً دقيقاً متعذر جداً لشدة اختلاف المؤرخين عليه .

سلّمت دمشق وكان الصيف قد أقبل ، وبدأت الأرض تجف ، ترك أبو عبيدة يزيد بن أبي سفيان على قوة من فرسان اليمن بدمشق ، وتقدّم ومعه خالد بن الولد وقوات الجيش مجتمعة ، فبلغ فحل ووادى بيسان حين بدأ جفاف الأرض يسمح للجيوش بالالتقاء والقتال .

وكان أبو بكر قد جعل إمارة الأردنّ لشرحبيل بن حسنة ، كما جعل حمص لأبي عبيدة ، والبلقاء ليزيد بن أبي سفيان ، والعربات لعمرو بن العاص ، وجعل القيادة العملية لمن يقع القتال فى إمارته . ولم يعدل عمر عن هذا الأمر ؛ لذلك تولى شرحبيل القيادة على جيوش المسلمين المقيمين عند فحل ، ومن أقام منها بإمرة أبي الأعور السلمىّ من قبل أن تُحْصَر دمشق ، ومن جاء منها بعد حصار دمشق بقيادة أبي عبيدة .

وبعث شرحبيل أبا الأعور فى لوائه إلى طبريَّه فحاصرها ، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الجيش ، وأبا عبيدة وعمرو بن العاص على مجنبتيه ، وضرار بن الأزْوَر على الفرسان . وسارت هذه القوات جميعاً فعبرت اليرموك عند أم قيس على مقربة من مصبّه بالأردنّ ، ثم تخطّت وادى الغور ، حتى إذا بلغت فحل عسكرت بها فوقفت قبالة الروم ببَيْسان . ولما لم تستطع أن تتخطى الأرضَ المستوحلة إليهم تشاور الأمراء ، فكتبوا إلى عمر بموقفهم وأقاموا ينتظرون جوابه . ولم تكن قلة المؤونة تُعجلهم إلى التزحزح عن موقفهم ؛ فقد أصابوا من ريفه أفضل مما أصاب الروم ، إذ كان الخصْب من حولهم يجعل مادتهم متصلة وعيشهم رغداً . وكان الروم بإزائهم يقفون فى ثمانين ألفاً أشد ما يكونون حرصاً على أن يظفروا بأولئك الذين قضوا على قواتهم باليرموك وفتحوا عليهم دمشق .

ولما طال وقوف المسلمين عند فحْل خيّل إلى سقلاربن مخراق قائد هرقل على قواته العظيمة أن الخير فى أن يأخذ عدوه على غِرَّة منه فيوقع به ويقضى عليه . وتخيرت له طلائعه ، خلال الأرض المحيطة به ، مكاناً تسير منه قواته . فلما أقبل الليل تخطى بجنده هذا المكان ولا يخامره الريب فى أن المسلمين قد أمِنوه فهم فى غير عُدَّة القتال ، وأنهم لذلك ستضطرب صفوفهم لأول صدمة من صدماته . لكنه قدَّر فأخطأ ؛ فقد كان المسلمون على حذر لا يأمنون مجيء الروم ، وكان شرحبيل لذلك لا يبيت ولا يصبح إلا على تعبئة . لذلك تلقى سقلاَر وجنوده فقاتلهم أشد قتال وأمرّه . واستبسل الروم مستقتلين ، فطالت المعركة الليل كله واستمرت اليوم الذى يليه إلى الليل . وكان لخالد بن الوليد ولضرار ابن الأزور يومئذ مواقف ذكرت المسلمين بفعالهما فيما سبقها من الغزوات والوقائع . فلما أظلم الليل خارت قوى الروم ، فاضطربت صفوفهم ، فانهزموا وهم حيارى بعد ما أصيب

سقلار ومن يليه من قواده .

أما لهذه القوات المنهزمة من ملجأ تفر إليه أو خط دفاع تحتمى به ؟ كلا ! فقد أسلمتهم هزيمتهم وحيرتهم إلى الوحل فتعذّر عليهم السير فيه ، فلحق بهم المسلمون ، وكانوا يحسبونهم على قصد فإذا هم فى اضطرابهم لا يُطيقون سيراً ولا فراراً ، ولا يستطيعون أن يردّوا يد لامس . وركبهم المسلمون فوخزوهم بالرماح وألقوهم فى الوحل وقتلوهم شر قتلة ، فأصيب الثمانون ألفاً لم يفلت منهم إلا الشريد ، وكذلك ظفر المسلمون أحسن ظفر وأهنأه ، وغنموا ما شاء الله أن يغنموا ، واقتسموا ما أفاء الله عليهم ، واطمأنوا إلى أن الله ناصرهم ، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين بالمدينة يخبره بظفرهم ، وبأنه سيسير ومعه خالد بن الوليد إلى حمص .

وازداد المسلمون بنصر الله إيماناً حين رأوه جل شأنه يصنع لهم وهم كارهون . كرهوا توحّل الأرض إذ حال بينهم وبين عدوهم ، فكان ما كرهوا عوناً لهم وحصاراً لعدوهم وقضاءً آخر الأمر عليه أيما قضاء . أليست هذه آية الله وبرهانه على أنه لا محالة ناصرهم وأنهم سيذيلون من دولة الروم والفرس جميعاً [1] ؟

كان أبو الأعور لا يزال محاصراً طبرية حين فرغ المسلمون من فحْل . ونهد شرحبيل ومعه عمرو بن العاص من فحل إلى بيسان فنزل بجنوده يحاصرها . وتحصن أهل بيسان بكل مكان وحاولوا صد المسلمين . وما لهم لا يصدونهم وقد علموا أن خالد بن الوليد وأبا عبيدة عادا إلى دمشق ليسيرا منها إلى حمص ، وأن أبا الأعور لا يزال على حصار طبرية ، وأن قوات المسلمين مقسمة فى أماكن مختلفة من الشام ، فالقوات التى بقيت منها لمحاصرتهم ليست مما يتعذّر صده ! لكنهم لم يطل مع ذلك مقاومتهم واضطروا بعد قليل إلى التسلم وقبول صلح كصلح دمشق . ذلك بأن حالهم المعنوية كانت قد هوت إلى منحدر من الضعف بسبب ما أصابهم فى اليرموك وفى دمشق وفى فحل . ثم إن أهل الشام لم تبلغ منهم عداوة المسلمين مبلغاً يعاون الروم على المقاومة ؛ فقد حكمهم الروم حكم بأس وقسوة لا يثيران فى النفس حماسة لهذا الحكم أو حرصاً على بقائه . ومن أهل الشام قبائل كثيرة من العرب والنصارى ، تنازعتهم رابطة الجنس ورابطة الدين زمناً ، فهم عرب كالمسلمين ، ونصارى كالروم ؛ فلما رأوا ضعف هرقل وجبن بلاطه وهزائم قواده لم يأبَ بعضهم أن يكون مع العرب المسلمين وأن يدلهم على عورات الروم . هذا إلى ما للنصر من

---

(١) يسمى المؤرخون هذه الموقعة غزاة فحل ، وغزاة بيسان ، وذات الردغة ، أى الوحل .

لألاء يبهر الأنظار ويدعو الجماهير للإعجاب بالمنتصر والانضمام إليه .

وبلغ أهلَ طبرية ما أصاب بيسان وأهلها ، فطلبوا إلى أبي الأعور أن يصالحوا شرحبيل ، فجمعهم به فصالحوه كما صالحه أهل بيسان على صلح دمشق ؛ وذلك أن يشاطروا المسلمين المنازل فى المدن وما أحاط بها ، فَيدعوا لهم نصفها ، ويجتمعوا فى النصف الآخر ، وأن يدفعوا جزية ديناراً عن كل رأس كل سنة ، وكيلاً من البُرّ عن كل قدر معين من الأرض . واحتذى أهل أذْرعات وعَمّان وجَرَش ومآب وبُصْرى مثالهم ، وصالحوا المسلمين مثل صلحهم . وكذلك أذعنت بلاد الأردنّ إلى حوْران وإلى البادية ، ورضيت سلطان المسلمين الذين أقاموا الجند فى المدن ثم تركوا لأهلها إدارة شئونها ، على أن يتولوا هذه الإدارة بالعدل والنّصفة .

* * *

والآن أنتابع أبا عبيدة بن الجرّاح وخالد بن الوليد فى مسيرتهما إلى حمص ، أم نسير مع هاشم بن عُتبة والقعقاع بن عمرو وجيش العراق لنرى ما فعل الله بالمثنى ومن بقى معه من رجاله ، ولنشهد القادسيَّة مع سعد بن أبي وقّاص ؟ وبعبارة أخرى : أنتابع قوات المسلمين فى فتح الشام حتى يفتح الله عليهم الشام كلها ، أم ننتقل إلى العراق فنقص أنباءه إلى أن يتم فتحه ؟ جرى بعض المؤرخين على الطريقة الأولى ، وآثر آخرون الطريقة الثانية . وسنتابع نحن الآخرين فننتقل إلى العراق ، لتكون رقعة الدولة الإسلامية تحت نظرنا نتابعها فى مجموعها ، ونراها أمام أعيننا تنفرج شيئاً فشيئاً إلى الشرق وإلى الغرب . ذلك أدنى إلى أن نقدّر الجهد الذى كان هؤلاء المسلمون الأولون يبذلونه فى مواجهة الأسدين فارس والروم فى وقت واحد ، أدنى كذلك إلى أن نحيط بسياسة عمر ، وأن نعرف كيف كان يواجه هذه الحوادث الجسام المتلاحقة ، وكيف كان ينهض معها بأعباء الحكم فى المدينة وفى شبه الجزيرة جميعاً على نحو يزيد العرب طمأنينة إلى حياتهم ، وحماسة للفتح الذى كان يُدرّ عليهم من خيرات فارس والروم ما لم يَدُرْ مثله بخواطرهم فى أى عهد من عهود تاريخهم .

على أنه لا بد لنا ، قبل أن ننتقل مع هاشم بن عتبة وأصحابه إلى العراق ، من أن نقف وقفة قصيرة لنذكر هنا ما ذكرنا فى سيرة أبي بكر عن اختلاف المؤرخين فى التسلسل التاريخى لوقائع الفتح فى الشام . فقد رأينا من حوادث هذا الفصل أن أبا بكر قُبض والمسلمون على اليرموك ، وأن المسلمين انتصروا باليرموك فى عهد عمر ، وذلك يوم أقبل

البريد إلى الشام بوفاة أبي بكر وعزل خالد بن الوليد عن إمارة الجيش وبإسنادها إلى أبي عبيدة بن الجراح ، وأنهم ساروا بعد ذلك بأمر عمر إلى دمشق فحاصروها وفتحوها ، ثم عادوا بعد صلح دمشق إلى الأردن فطهّروه وصالحوا أهله على صلح أهل دمشق . وهذه رواية الطبرى وابن خلدون وابن الأثير وابن كثير ومن أخذ أخذهم . أما الأزدى والواقدى والبلاذُرى فيخالفون الطبرى فى هذا الترتيب لوقائع الفتح فى الشام ، ويذكرون أن أجنادين ودمشق وغيرهما من الوقائع كانت قبل اليرموك . ويذهب بعضهم إلى أن اليرموك كانت آخر الغزوات بالشام . ومن العسير أن نقطع برأى حاسم فى هذا الاختلاف . والطبرى نفسه يذكر هذا الاختلاف ولا يقطع فيه برأى ، فيقول : « قال محمد بن إسحاق : كان فتح دمشق فى سنة أربع عشرة فى رجب ، وكانت وقعة فحل قبل دمشق ، وإنما صار إلى دمشق رافضة فحل واتبعهم المسلمون إليها . وزعم أن واقعة فحل كانت سنة ثلاث عشرة فى ذى القعدة . وأما الواقدى فإنه زعم أن فتح دمشق كان فى سنة أربع عشرة ، وزعم أن وقعة اليرموك كانت فى سنة خمس عشرة ، وزعم أن هرقل جلا فى هذه السنة بعد وقعة اليرموك فى شعبان من أنطاكية إلى قسطنطينية ، وأنه لم يكن بعد اليرموك وقعة » .

لا غَناء فى الوقوف عند هذا الاختلاف مادام القطع فيه برأى غير ميسور . وقد أخذنا فى هذا الفصل برواية الطبرى ومن أخذ مأخذه ، فلنجر عليها . ولن يجنى ذلك فى شىء على ما نريده من التأريخ للإمبراطورية الإسلامية فى عهد عمر . فسواء تقدم فتح دمشق على اليرموك أو تأخر عنه ، فوقائع الفتح متفق على جملتها وإن وقع الخلاف على تاريخها وعلى بعض تفاصيلها . ورواية الطبرى عن سيف بن عمرو عمن رَوَى عنه أن اليرموك كانت فى رجب من سنة ثلاث عشرة (سبتمبر سنة ٦٣٤) ، وأن دمشق حوصرت فى شوال من تلك السنة ، وفتحت فى أوائل السنة التى تليها (بين ديسمبر سنة ٦٣٤ وأوائل الربيع من سنة ٦٣٥) ، وأن فحل وقعت بعد دمشق فى صيف سنة ٦٣٥ ، ثم تلتها سائر مدن الأردنّ .

سار أبو عبيدة وخالد بن الوليد بعد فحل إلى حمص ، وسار هاشم بن عتبة عائداً إلى العراق . فلندع خالداً وأبا عبيدة ، ولنسر مع جيش العراق لنشهد القادسيَّة ، هذه الغزوة الفاصلة التى فتحت أمام المسلمين أبواب المدائن ، والتى تُعَدّ فى رأى المؤرخين جميعاً إحدى الغزوات الحاسمة التى وجهت تاريخ العالم وجهة جديدة .